ISSN: 2090 – 0449 Online
Universal Impact Factor (UIF), 2015.
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

جهود السلطة والصلحاء في مواجهة ظاهرة الفقر في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين (ق١٣/١٤م)

بختة خليلي

باحثة دكتوراه تاريخ وسيط

جامعة معسكر

ولاية الشلف – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

على الرغم من التقدم الذي أحرزته بعض الدراسات حول التاريخ الاقتصادي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، إلا أن الدراسات التي ألفت في مجال التاريخ الاجتماعي الوسيط ما تزال قليلة بل نادرة، ربما لصعوبة معالجة موضوعاتها عن غيرها لقلة المعلومات حول المجتمعات المغربية الوسيطة في المصادر المكتوبة وغياب الوثائق الأرشيفية من جهة، وسهولة تناول مجريات التاريخ السياسي وتوفر مادته من جهة أخرى، أغرى الكثير من المؤرخين على التركيز عليه. والمقال مجرد رؤية تاريخية ارتأينا من خلالها إبراز مسببات الفقر في المغرب الأوسط من حروب ومجاعات وأمراض وأوبئة وقسوة في جباية الضرائب، والتي كان لها الأثر المباشر في تفشي الفقر داخل المجتمع الزياني، كما سعينا إلى عرض الدور والجهد السلطوي تجاه الفئات الفقيرة والمحتاجة، وذلك بالنظر في أمورهم وانشغالاتهم والسعي لحلها والتخفيف منها كوقف أوقاف دائمة أو مؤقتة لهم، ثم دور الصلحاء والفقهاء ومحاولتهم لأجل الرفع من المستوى المعيشي لهذه الفئات الضعيفة، بالتقرب منهم وتوعيتهم ومشاركتهم محنهم وأزماتهم واقتسام ما لديهم معهم، فكل من السلطة والعلماء والصلحاء شكلوا نسقًا متكاملاً في السعي لمواجهة الفقر، وتحسين المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الزياني.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٥	أكتوبر	٢٠١٤
تاريخ قبول النشر:	١٨	يناير	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

ظاهرة الفقر، الفقراء، السلاطين الزيانيين، العلماء والصلحاء، التاريخ الاجتماعي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بختة خليلي. "جهود السلطة والصلحاء في مواجهة ظاهرة الفقر في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين (ق١٣/١٤م)".- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والثلاثون؛ ديسمبر ٢٠١٦. ص١٢٢ – ١٢٨.

مُقَدِّمَةْ

لا ريب أن الفقر من المعضلات المثيرة للكثير من الحروب والأزمات، وأنه الآفة الخطيرة التي ظلت تفتك بالحشود من البشر، وتهدد الإنسان وتنذره بشر أكيد، وما زال أمرها يتفاقم وأرقام ضحاياها ترتفع حتى لتشكل الآن -بالنسبة للأمم والأقوام- القنبلة الموقوتة التي لا تبقى ولا تذر، فالفقر هو ظاهرة أزلية تتصل خيوطه ببني آدم على تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومجتمع المغرب الأوسط[1] كغيره من المجتمعات عرف أزمات اقتصادية واجتماعية، انعكست على أفراد مجتمعه بتفشي الفقر وتدني المستوى المعيشي الذي كان يتحسن نسبيًا في أوقات الرخاء ويتدنى في فترات الأزمات[2]، ولأجل ذلك أخذ تحسين المستوى المعيشي ومواجهة هذه الظاهرة بحظ وافر من اهتمام سلاطين وعلماء بني زيان، ونظرًا لكون المغرب الأوسط يزخر بإمكانيات جعلت منه إقليمًا فلاحيًا، انتهج سلاطين الدولة الزيانية سياسة اقتصادية برزت ملامحها باستقامة أحوال الناس خلال بعض الفترات، وهو الأمر الذي استقطب الفقراء والمحتاجين من داخل الدولة وخارجها باعتبار أن المدن الأكثر نشاطًا للتجارة والإنتاج أكثر جذبًا للفقراء والبؤساء، لكثرة الصدقات والهبات وخاصةً في مناسبات الأعياد الدينية، وهنا يصدق قول الشاعر:

يسقطُ الطَّيرُ حيثُ ينتثر الحبُّ وتُغشى منازلُ الكرماءِ[٣]

على محك هذه الملاحظات والإشارات المهمة للموضوع، نسعى من خلال هذا البحث إلى طرح بعض التساؤلات: ما مفهوم الفقر؟ وكيف نفسر العوامل التي أدت إلى إقصاء شريحة الفقراء من دائرة اهتمام مؤرخي العصر الوسيط مقارنة بتوسيع كتاباتهم عن الطبقة الحاكمة؟ وما هي مسببات هذه الظاهرة؟ وما هي جهود ومساعي السلطة والعلماء الزيانيين لمواجهة تلك الظاهرة والحد منها؟ وما هي التدابير المنتهجة لتحسين المستوى المعيشي للفرد الزياني؟.

أولاً: معنى الفقر لغة وشرعًا

الفقر لغة: هو الحاجة والعوز والفاقة والهم والحرص، يقال فلان محتاج أي قليل الزاد والمال والمتاع[٤]، والفقر ضد الغنى مثل الضعف والضعف[٥]، يقال فلان شكا إليه فقوره: حاجته، أخبره فقوره: أحواله[٦]، الافتقار والنعت فقير: المحتاج.[٧] يُقال فقر فلان فهو فقير والجمع فقراء[٨]، والفقير عند العرب هو المحتاج لقوله تعالى "أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ"[٩] يُقال عال الرجل عياله إذا افتقر واخل وأعوز، وامعر الرجل إذا ذهب ما في يديه نفق ماله[١٠]، وقد ورد مصطلح الفقر في المعاجم اللغوية بعدة معاني منها: الفقر بمعنى انكسار الظهر حسب قول ابن الأعرابي "ورجل مفقور وفقير، مكسور الفقار"،[١١] كما ورد بمعنى الضعف والهوان والذل حسب قول الأزهري "ومع ضنك العيش وجدبه تنكسر الظهر من شدة الذل والسؤال والهوان"،[١٢] وتنوعت معانيه مثل الفقر بمعنى الموت والالتصاق بالتراب والسقوط والهاوية.

الفقر شرعًا: فقد ورد ما يدل عليه في القران الكريم في قوله تعالى "لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ[١٣] وكذا قوله تعالى لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"،[١٤] وقوله تعالى "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ"،[١٥] وفي سورة فاطر قوله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"،[١٦] كما ورد عن النبي من أحاديث في شان الفقر فعن أبي هريرة "رضي الله عنه" أن النبي (ﷺ) كان يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ".[١٧]

ثانيًا: الفقر والفقراء في كتابات مؤرخي المغرب الأوسط

على الرغم من أهمية الموضوع الذي يؤرخ لفترة هامة من التاريخ الاجتماعي للفئات المنسية والمهمشة في المغرب الأوسط، فإنه لم ينل حظه الكافي من البحث والاستقصاء في الدراسات التاريخية، باستثناء بعض الإشارات الخفيفة عنه أثناء الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية بصفة عامة، كما أن المصادر التاريخية أقصت هذا الموضوع من دائرة اهتماماتها، وإنصافًا للحقيقة والموضوعية إن بعض المؤرخين القدامى على الرغم من قلتهم تنبهوا إلى هذا العيب وحاولوا تجاوزه، فمنذ القرن (٨هـ/ ١٤م)، تنبه ابن خلدون إلى ضرورة إحداث النقلة من تاريخ الفئة الحاكمة إلى تاريخ الشعوب، وانتقد بهذا الخصوص المؤرخين الذين أفاضوا في ذكر الأمير وصفاته فنعتهم بالتقليد والغفلة، على الرغم من أنه هو الأخر لم يستطيع أن يفك نفسه من أسر التاريخ النخبوي الذي سار على هديه معظم المؤرخين،[١٨] إلا أنه حاول رفقة مؤرخين آخرين كالمازوني والونشريسي الخروج عن دائرة الإقصاء حين أكدوا على معاناة هذه الفئات من جراء التغيرات السياسة والاقتصادية والاجتماعية مقدمين لنا وصفًا لبعض العينات من المجتمع كقول المازوني "وأما باقي المال الذي بيده وليس بغير الحرام فالواجب أن يصرف جميعه إلى المساكين والفقراء، ويستحب أن يصرف في مساكين الجهة التي تعدوا فيها.." [١٩]، وبالمثل تكاد الإشارات تخلوا حول هذا الموضوع في كتب التراجم باستثناء ما ارتبط بسيرة وحياة بعض العلماء والصلحاء، في حين كتب التصوف استفردت بالحديث على هذه الظاهرة باعتبار أكثرية المتصوفة من الطبقة الفقيرة، ويمكن الاعتماد عليها من حيث التنظير للموضوع.

أما عن تفسير ظاهرة تهميش شريحة الفقراء في الكتابة التاريخية، فربما يعزى ذلك إلى عجز مؤرخي العصر الوسيط عن الرؤية الواقعية لمسار حركة التاريخ واعتباره مجرد تراكمات كمية للأحداث والأشخاص والأسر، وهذا ما يفسر إقصاء هذا القطاع الاجتماعي العريض الذي يشكله الفقراء وعامة الناس من الكتابة التاريخية باستثناء تلميحات وإشارات باهتة وردت على رؤوس أقلام مؤرخين.[٢٠] كما يرجع تهميش هذه الشريحة في الكتابة التاريخية ربما أيضا إلى كون المؤرخ الإسلامي في العصر الوسيط ظل أسير بلاط الدولة الرسمية التي تحتضنه، وبالتالي فإن كتاباته تعكس سياسة الحاكم وأي خروج عن ذلك يعتبر عصيان يوجب خمده. يضاف إلى هذه التفسيرات السابقة هيمنة فكرة البطل التاريخي على عقلية المؤرخ في العصر الوسيط، فقد تبنى المؤرخ التفسير الفرداني لوقائع التاريخ اعتقادًا منه أن الفرد هو صانع التاريخ، لذلك ظلت كتاباته عبارة عن تمجيد ومدح للخلفاء والملوك متناسين الفئات الاجتماعية الفقيرة.[٢١]

ثالثا: أسباب تفشي ظاهرة الفقر في المغرب الأوسط

إن الفقر وكأي ظاهرة تاريخية لا يمكن دراستها إلا بحصرها في مجال زمني محدد لكي يتسنى لنا تتبع حيثياته، فلا شك أن المغرب الأوسط عرف خلال الفترة الزيانية تغيرات وأحداث سياسية كان لها الأثر المباشر على بنية مجتمع المغرب الأوسط

وأوضاعه، كالحروب والفتن بين الكيانات السياسية الثلاث، الزيانيين والخطر الحفصي من الشرق، الزيانيين والخطر المريني من الغرب، وكذا الفتن والثورات الداخلية من طرف القبائل المعارضة للسلطة.[٣٢] هي حروب تسببت في إلحاق الضرر بالكائنة والساكنة في أي وقت ومكان، تميزت بخصائص كطول أمدها، وتعدد مناطق الصراع وأكثر من ذلك تشابهها مع الكوارث الطبيعية المنشأ من حيث الضرر والخراب الذي ينجر عنها، الفقر والمجاعات والأمراض والأوبئة، ناهيك عن القتل الذي يطال الناس[٣٣] على حد تعبير ابن خلدون "وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياسًا متورطًا في الغلط بعيدًا من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد من الضعف والزمامة وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم".[٣٤]

لعل أهم الحروب التي كان لها الأثر العميق والتحول البارز، ماعرفته الدولة الزيانية مع جارتها من بني مرين سنة (٦٨٨-٦٨٩هـ/ ١٢٨٩- ١٢٩٠م)، فقد تعرضت تلمسان إلى خراب المداشر والقرى إضافة إلى سبي النساء والحريم[٣٥]، ثم في سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م)، والتي شكلت أخطر الحملات وأشرسها على تلمسان، على حد قول ابن الأحمر "لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعًا"،[٣٦] فقد قامت الجموع المرينية بمحاصرة تلمسان لمدة أكثر من ثمان سنوات وأنجر عن هذا الحصار كثرة الموتان والجوع والفقر وغلاء الأسعار.[٣٧]

كانت الحروب والحصارات تؤدي إلى تراجع في النشاط الزراعي والرعوي في البوادي، لأن الفلاحين مهددون بالجوع والإفلاس في أي لحظة يمر الجيش بها ويتلف محصولهم، عندئذ يصابون بالفقر ويجدون أنفسهم عاجزين عن دفع ما عليهم من كراء وضرائب، على حد قول ابن خلدون "قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في أخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أوالفتن الواقعة بين انتقاص الرعايا... فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا"،[٣٨] كما لا ننسى أن الجيش كان يأخذ الجباية من السكان قسرًا مما يتسبب في إفقار الرعية واضعافهم، ذلك ما فعله السلطان الحفصي أبو زكريا عندما إحتل تلمسان سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، فاستوفى من أهلها الجباية.[٣٩]

كان للعوامل الطبيعية دورًا كبيرًا في افتقار الناس إلى الضروريات من الحياة كالغذاء والماء أيام حدوث جوائح كالجفاف، والقحط والجراد وهذا ما يؤكده العبدري في قوله "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلد حلت به زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبقى به علالة ولا تبصر في أرجائه للظمئان بلالة"،[٣٠] وأكد ذلك أيضًا ابن خلدون في قوله "وكان أصاب الناس أعوام اثنين وتسعين وستمائة وما بعدها قحط"[٣١]، إذن فلطالما هدد معاش وكسب الإنسان من قبل هذه الجوائح وغيرها وبالتالي تهديد أمنه الغذائي.

كان الفقراء والمحتاجين هم الأكثر عرضة للأمراض والأوبئة بسبب مجاورتهم الجنائز وضيق المساكن، وانعدام الوعي الصحي وشروط النظافة وسوء التغذية ومن الأمراض التي انتشرت خلال هذه الفترة مرض الذبحة والسعال الديكي، الذي يسببه الجلوس على الأرض دون فراش في فصل الشتاء وكذلك أمراض البرد[٣٢]، إضافة إلى مرض النسا والركب" بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل".[٣٣] كما كان لعامل جباية الضرائب سبب آخر في إفقار الناس إذ يصف لنا الوزان حالة الفقر التي يعيشها سكان المسيلة بسبب إرهاقهم بالضرائب فيقول: "والسكان كلهم صُناع أو فلاحون يرتدون لباسًا رديئا لفقرهم، بسبب الأعراب الذين يسلبون مداخليهم، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب، وقد اندهشت للفقر السائد بالمسيلة عند مروري بها "[٣٤] فالوزان يعطينا صورة حية عن شدة الفقر لسكان المغرب الأوسط.

على العموم، كان المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الزياني يختلف من فئة إلى أخرى فهو يتماشى والطبقية في المجتمع، فالفئات الدنيا في المجتمع على الرغم من أنها أكثر إنتاجًا إلا أن مستواها المعيشي دومًا متقهقر، فغذاء سكان الأمصار الكبرى ليس كغذاء سكان القرى والبوادي، وغذاء الملوك والأغنياء ليس كغذاء بسطاء الناس، وهو الأمر الذي أقره ابن خلدون في قوله "إن أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار. فان أهل الأمصار وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين في العيش، إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بمختلف المواد، في حين كان أهل البوادي قد ألفوا تناول الغذاء على طبيعته"[٣٥]، وكان بعض الفقراء في المغرب الأوسط يأكلون الطيور الميتة[٣٦]، لشدة فقرهم وذلك في غير أوقات المجاعة.

إذن كل هذه المتغيرات كان لها الأثر البارز في الوقع السيء على المستوى المعيشي للسكان، وتفتيت عضد المجتمع الوسيطي،[٣٧] واستفحال الفقر داخل المجتمع الزياني بمختلف صوره، وآثاره الوخيمة، فما هي جهود وإسهامات السلطة والعلماء لمواجهتها؟

رابعًا: جهود السلاطين الزيانيين لمواجهة ظاهرة الفقر

أولى سلاطين بني زيان خلال القرنين الهجريين (٧-٨هـ) اهتمامًا ورعاية كبيرة لاقتصاد الدولة الزيانية، هادفين تحسين المستوى المعيشي وتحقيق الرخاء والأمن الغذائي لأفراد المجتمع الزياني. عرفت تلمسان في عهد السلطان يغمراسن رواجًا اقتصاديًا كبيرًا بسبب الأمن والاستقرار الذي ساد تلمسان

ونواحيها، بفضل محاربتهم لعناصر الفوضى والفساد[٣٨]، وإرغام خصومهم من الأعراب المجاورة لهم على الطاعة والخضوع.

شهد النشاط الزراعي تنظيمًا محكمًا خلال هذه الفترة إذ طبع بمميزات منها: اعتماد هذا النشاط على نظام الشراكة القائمة بين الخماس ورب الأرض مما أعطى ذلك دفعًا قويًا لاستقطاب أعداد معتبرة من اليد العاملة المحتاجة والفقيرة،[٣٩] وحرص يغمراسن على حسن مراعاة الزراع في الأراضي الواقعة تحت نفوذه،[٤٠] كما تنبه يغمراسن إلى أهمية التجارة والتجار، فخفف الجبايات عليهم، كان قسط كبير منها على شكل غلات ومواد مختلفة تجمع تلك الغلات في مخازن الدولة لتمويل الجيش أو توزيعها على الأهالي أيام المجاعات.[٤١]

طبق نظام الإقطاع (أي اقتطاع الأراضي) داخل تلمسان وخاصةً مع القبائل العربية والتي حصلت على أقطاعات واسعة حول تلمسان أيام السلطان يغمراسن، وكان الغرض من ذلك هو السعي للحماية والمحافظة على أمن واستقرار تلمسان من هجمات المرينن والحفصين.[٤٢] كما حاول السلطان أبو حمو موسى الثاني القيام بدور مهم في تحسين أوضاع العامة من الناس المستضعفين والفقراء المحتاجين، لاسيما أيام حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة والأمراض، وهذا ما أورده يحي ابن خلدون بقوله: "واشتملت هذه السنة (أي ٧٦٧هـ) أجمل الله ختمها على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا لريح ذات إعصار أهلكت زرع صائفتها وحيوانها، فافتقر الناس إلى ما عند الخليفة بنصف جباية حضرته الكريمة كل يوم على ضعافائها تجمع آلافه العديدة لأخر سبع ثم يحشرون...، وغيره من الرحاب الفسيحة، فيقسم ذلك حفظته عدلاً بينهم... ثم اقتضى نظره الكريم أن ضمنهم أجمعين بمارستانات يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيا..".[٤٣]

فقد اعتبرت محاولة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني بمثابة الخطوة المهمة لإيواء والتكفل بالمحتاجين، ناهيك عن إخراج وفتح مخازن الزرع لبيعه بأقل ثمنًا تيسيرًا للمحتاجين المنهكين من جراء الغلاء الفاحش عقب حدوث المجاعات.[٤٤] كما حرص على مد يد العون لهم، وتقديم الجرايات لهم في مختلف المناسبات والاستماع لانشغالاتهم مرة في كل أسبوع،[٤٥] كما أوقف بعض السلاطين أوقافًا لصالح الفقراء والمساكين والمحتاجين بشكل دائم أو مؤقت، فقد ذكر ابن مرزوق بعض الأعمال الخيرية التي دأب عليها بعض السلاطين في المغرب الأوسط بصفة عامة، وهذا النص فيه ما يدل على ذلك "ومن سننه وهي أنه أجرى لسائر الأيتام من سائر القبائل ما يتماشى به أحوالهم، ويستغنون به عن التكفف والعالة... الحق بمَنْ عاده، فلا يكاد يقع بصرك على يتيم في بلاد المغرب إلا وهو مكفول".[٤٦]

وزاد اهتمامهم بالفقراء خاصة أيام المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف، ويوم عاشوراء على حد قول ابن مرزوق "ومن صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنها هو أن في كل عاشوراء من سائر بلاده يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان كل واحد ويكسوه قميصًا وإحرامًا ويعطي عشرة دراهم وما يكتفي به من اللحم، فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام من سائر البلاد ما لا يحصى وهو عمل مستمر".[٤٧] كما أمر السلطان يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م)، ببناء مارستان مهمته التكفل بمداواة المعتوهين والمجانين والغرباء والمرضى والإنفاق عليهم، فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية "وهو الذي صنع المارستنات في بلاد المغرب للمرضى وللغرباء والمجانين، وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية، وما يشتهون من الفواكه والطرف، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم ومداواتهم، وما يصلح أحوالهم".[٤٨]

كما أولى هو الأخر اهتمامًا ورعاية خاصة للأيتام والمحتاجين للملبس والطعام على ذكر ذلك في قول ابن مرزوق "وأمر بتطهير الأيتام وكسوتهم والإحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء...وأوقف الأوقاف الكثيرة للإطعام عابري السبيل وذي الحاجات.."[٤٩].

واعتبرت البيمارستنات الملاجئ الخيرية التي يأوي إليها الفقراء والمساكين، بعد أن تجمعهم الدولة هناك لكي يسهل عليها توزيع الصدقات عليهم والاهتمام بهم على أكمل وجه وفي ذلك يقول يحي ابن خلدون "ثم اقتضى نظره الكريم إن ضمهم أجمعين ببيمارستانات يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيًا شتاء السنة".[٥٠] فالجدير بالذكر؛ أن الرعاية الاجتماعية بالفقراء والمساكين كانت من أولويات أهل وساسة المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

خامسًا: مساعي العلماء والصلحاء الزيانيين لأجل الرفع من المستوى المعيشي ومواجهة الفقر

برز دور الصلحاء بقوة في مجتمع المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن الهجريين بتقديم خدمات جليلة لأفراد المجتمع الزياني، ومن الأدوار التي قاموا بها، تشجيع الأغنياء وحثهم على الصدقة للفقراء المحتاجين،[٥١] كما كانوا بمثابة واسطة لدى الحكام لحل الكثير من مشاكل الرعية، ومثال ذلك أن الولي أبو العباس أحمد بن الحسن كان رحيمًا بالناس ساعيًا في مصالحهم على حد القول "ثم ينصرف بكليته لذوي الحاجات فيصبرهم ويؤمنهم ويغيث ملهوفهم ويكاتب ملك الوقت وأرباب الدولة فيقضي الله على يده كثيرًا من رد الظلمات وفك العناة"،[٥٢] وكان يتحمل المشاق من أجل خدمة الرعية. كما ساهم العلماء بالتخفيف من المغارم أو إلغائها على بعض الفئات المتضررة

منها، ساعين إلى وضع حد لبعض تجاوزات السلاطين كفرض مقادير معينة من المال على أعيان البلد حتى يتجاوز هذا الأخير ضائقته، وما يؤكد مكانة العلماء لدى السلاطين أنه قلما كانوا يرفضون مساعيهم، مما يوحي بمنزلتهم الرفيعة والأخذ بآرائهم في تحسين ظروف وخدمة الرعية.[٥٣]

كان العلماء والصلحاء يقتسمون ما يملكونه من مال وطعام مع المحتاجين الفقراء، ومثال ذلك أبوعبد الله بن أبي بكر مرزوق كان يهب المال لمَنْ أراد التجارة، وكان يكتال من زرعه للضعفاء طوال السنة، ويمنحهم مقدار من المال، على حد قول ابن مرزوق "أن جده كان يكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين"،[٥٤] وهو مثال آخر يبين لنا مدى حضور العلماء إلى جانب هذه الفئة المهمشة في المجتمع. واتخذ الصلحاء من الزاوية ملجأ للفقراء والمحتاجين كتزويدهم ببعض الأطعمة، والألبسة، والصدقات التي تصل إليهم فعظم دورها اقتصاديًا واجتماعيًا من خلال عمليات التضامن والتكفل بالمحتاجين والمساكين،[٥٥] فقد ذكر لنا الوزان أن أحد الأولياء الصالحين القاطن في إقليم البطحاء قد اشتهر بالغنى وكانت تصله الصدقات من كل البلدان فيجمع سنويًا مبلغًا من المال، فيطعم به الفقراء والمساكين فقد جاء في مساق حديثه عن هذا الأمر "واخذ يتقاطر عليه جمهور غفير من الناس، فيطعمهم جميعًا"،[٥٦] ولا سبيل للإنكار أن بعض الفئات الميسورة الحال في المغرب الأوسط ساهمت في الحد من الفقر وتقديم خدمات جليلة لهذه الفئة الضعيفة، فقد امدتنا كتب النوازل ببعض صور التكافل الاجتماعي "فقد أشار الونشريسي في أحد النوازل أن رجل أوصى لصبية يتيمة بأن يدفع لها بعد وفاته ربع حانوته، وينفق عليها إلى أن تتزوج".[٥٧]

كما كان لهم دور أيضًا في التوعية بخطبهم ومواعظهم المؤثرة في المساجد، كحثهم على الصبر أيام المجاعات التي اجتاحت تلمسان،[٥٨] وأمدنا المازوني بصور حول الرعاية الاجتماعية التي كانت تقدم للفقراء والمساكين واليتامى في تلمسان، حيث أورد في أحد المسائل" هل يرخص لمَنْ وجبت عليه الزكاة قبل يوم عاشوراء في تأخير إخراجها إليه إذا كان موسمًا للمساكين يبرزون فيه ويلحون في الطلب ولا يعذرون مَنْ لا يعطيهم فيه قياسًا على لزوم تأخير الزكاة عن حلول حولها"،[٥٩] فأجاز الفقيه المازوني ذلك، وكان الاحتفال بيوم عاشوراء خاص بالفقراء وجعلوا في هذا اليوم نصيب لهم بتقديم الزكاة إليهم، وأشار أيضًا المازوني في نازلة أخرى بقوله "بأن فقير سافر لأجل الحاجة التي لحقته وعليه دين كثير ولم يخلف لزوجته شيئًا، ولا يعرف أحد هل هو حي أو ميت فلحق الزوجة من ذلك ضررًا كثيرًا، هل يعطى لها زكاة أم لا، فأجاب بجواز اعطائها إذا كانت على الحالة المذكورة"،[٦٠] وهو تيسير من الفقيه بجواز إعطائها الزكاة لشدة فقرها. وسعى بعض العلماء إلى وقف أوقاف لمساعدة المحتاجين الفقراء والمتضررين زمن المجاعات والأوبئة والأمراض.

خاتمة

من خلال ما سبق ذكره يمكن القول؛ أن هذه المقالة هي مجرد رؤية تاريخية، ارتأينا من خلالها إبراز مسببات الفقر من حروب ومجاعات وأمراض وأوبئة وقسوة في جباية الضرائب، والتي كان لها الأثر المباشر في تفشي الفقر داخل المجتمع الزياني، وبالتالي افتقار الفرد إلى أبسط ضروريات الحياة من مأكل ومشرب، كما سعينا إلى عرض الدور والجهد السلطوي تجاه الفئات الفقيرة والمحتاجة، وذلك بالنظر في أمورهم وانشغالاتهم، والسعي لحلها، والتخفيف منها كوقف أوقاف دائمة أو مؤقتة لهم، ثم دور الصلحاء والفقهاء ومحاولتهم في الرفع من المستوى المعيشي لهذه الفئات الضعيفة، بالتقرب منهم وتوعيتهم، ومشاركتهم محنهم وأزماتهم، واقتسام ما لديهم معهم، فكلٌ من السلطة والعلماء والصلحاء شكلوا نسقًا متكاملاً في السعي لمواجهة الفقر، وتحسين المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الزياني، رغم الكثير من الاضطرابات السياسية والكوارث الطبيعية التي واجهتهم، وتبقى هذه المقالة مجرد محاولة أولى للنبش عن واقع الفقر وأثره على الفئات المنسية في المغرب الأوسط، ونأمل أن تعقبها محاولات أخرى من طرف الباحثين حتى تكتمل جوانب الموضوع.

الهَوامِشُ:

(١) **المغرب الأوسط:** سمي بذلك لأنه يتوسط المغربين الأقصى والأدنى، حده من وادي مجمع وهوفي نصف الطريق بين مدينة مليانة وتلمسان بلاد تازا من بلاد المغرب في الطول، وفي العرض من البحر الذي على ساحل البلاد إلى مدينة تنزل، وهوفي الأغلب ديار زناتة، وقاعدته تلمسان، مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ص ١٢٧، ١٣٥.

(٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣ ص ٢١٠.

(٣) لسان الدين ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تح. محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٥٨.

(٤) عبد السلام الخرشي، **فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة**، دكتوراه في القرآن والحديث، دار المؤيد، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٩.

(٥) ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد ٠٩، دار صادر بيروت، د.ط، ص ٢٠.

(٦) صالح العلي صالح وأمينة الشيخ سليمان الأحمد، **المعجم الصافي في اللغة العربية**، د. ط، الرياض،١٤٠١هـ، ص٥٠٠.

(٧) عبد السلام الخرشي، المرجع السابق، ص١٩.

(٨) أبو الحسن علي بن اسماعيل المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج٦، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، ٢٠٠٠، ص٣٧٨.

(٩) **سورة فاطر**، الآية، (١٥).

(١٠) عبد السلام الخرشي، المرجع السابق، ص١٩.

(١١) أبوالحسن علي بن اسماعيل المرسي، المرجع السابق، ص٣٧٩.

(١٢) عبد السلام الخرشي، المرجع السابق، ص٢٠.

(١٣) **سورة البقرة**، الآية (٢٧٣).

(١٤) **سورة الحشر**، الآية (٠٨).

(١٥) **سورة التوبة**، الآية (٦٠).

(١٦) **سورة فاطر**، الآية (١٦).

(١٧) أخرجه أبوداود في سننه، **كتاب الصلاة**، باب الاستعاذة، ج٢، ص٩٢.

(١٨) إبراهيم القادري بوتشيش، **النوازل الفقهية كتب المناقب والعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي (٦/٥هـ)(١٣/١٢م)**، مجلة التاريخ العربي، العدد (٢٢)، ص٠٢.

(١٩) المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق مختار حساني، دار الكتب العلمية، القبة، ج٤، ص٩٥.

(٢٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **النوازل الفقهية والعقود العدلية**، ص٠٣.

(٢١) نفسه، ص٠٣.

(٢٢) سمية مزدور، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسنطينة ٢٠٠٩، ص٩٤.

(٢٣) حسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، الدار البيضاء، منشورات الزمن، ٢٠٠٢، مطبعة النجاح الجديدة، ص٨٨.

(٢٤) عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ج٦، ص٥٦٩.

(٢٥) ابن أبي زر الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، ط٢، الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٩، ص٣٧٩، ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص١٩٤.

(٢٦) ابن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية**، تحقيق ابن هانئ سلامة، ط١، بور سعيد، ٢٠٠٢، ص٦٩.

(٢٧) يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج٢، ص٢١٠.

(٢٨) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢، ص٢٨٨.

(٢٩) الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، ط٢، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٩٦، ص٢٩.

(٣٠) العبدري، **الرحلة المغربية**، تحيقيق أحمد بن جدوا، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، د.ت، ص٠٩.

(٣١) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص٤٥٤.

(٣٢) سمية مزدور، المرجع السابق، ص١٤٣.

(٣٣) الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣، ج١، ص٨٣.

(٣٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٩٧.

(٣٥) سمية مزدور، المرجع السابق، ص٦٦، نقلاً عن: ابن الصباغ، **أزهار البستان**، صور رقم (٢٦) ب.

(٣٦) الوزان، ج٢، ص٥٢.

(٣٧) المازوني، المصدر السابق، ج١، ص٣٤١.

(٣٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٩٢.

(٣٩) عبد الحميد حاجيات، **أبوحموموسى الزياني حياته وأثاره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ص٩٤.

(٤٠) المازوني، المصدر السابق، ج٤، ص٧.

(٤١) ابن الأحمر، المرجع السابق، ص٣٨.

(٤٢) رشيد بورويبة وآخرون، المرجع السابق، ص٤٨٧.

(٤٣) ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج٢، ص٥٧٦.

(٤٤) عابد بن تومي، **الكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة في المغرب الاوسط وأثرها في المجتمع ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (القرن١٣/١٥م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة، معسكر، ٢٠١٠، ص١٤٣.

(٤٥) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠٠، ج١، ص٢٢٦.

(٤٦) يذكر أن أبا الحسن المريني وزع على فقراء تلمسان اثني عشر ألف دينار، واثني عشر ألف كساء، ومن الطعام مطامير لاتعد ولا تحصى فضلاً عن مكافأته للأعيان والصلحاء، يُنظر، ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠، ص٤٢، ١٩٢.

(٤٧) المرجع نفسه، ص٤٢.

(٤٨) ابن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في الدولة المرينية**، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٢٠، ص٩١.

(٤٩) المرجع نفسه، ص٩١.

(٥٠) يحي ابن خلدون، **بغية الرواد**، ج٢، ص٥٧٦.

(٥١) الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١، ص١٦١.

(٥٢) عبيد بوداود، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين (٧/٩هـ)/ (١٣/١٥م)**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٣، ص٢٥٢.

(٥٣) المرجع نفسه، ص٢٥٢.

(٥٤) ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**، تحقيق سلوى الزهاوي، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، ٢٠٠٨، ص١٦٠.

(٥٥) المرجع نفسه، ص١٦٢.

(٥٦) الوزان، المصدر السابق، ج١، ص٢٩.

(٥٧) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف الإسلامية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ج١٠، ص٢٩٤.

(٥٨) المازوني، ج١، ص٣٣٧.

(٥٩) عبيد بوداود، المرجع السابق، ص٢٥٦.

(٦٠) المازوني، ج١، ٣٤١.